ضَوء عَلى نشأة البَديعيَّات

للأستاذ/ على أبوزيد

اطلعت على ما كتبه الدكتور عبد الكريم الأسعد ، في العدد الأول من السنة السادسة لمجلة « الدارة » ، بعنوان : « البديعيات نظرة تاريخية » على الصفحات (١٣٣ ـ ١٤٣) .

ومع سروري بهذه اللفتة الكريمة من الدكتور الأسعد الى هذا الفن الشعري الذي يكاد يكون مغمورا بين المتعلمين ، على الرغم من انسيابه على رقعة واسعة من الحضارة العربية الاسلامية ، وخلال فترة من الزمن بلغت نحو سبعة قرون ، فقد وجدت في هذا المقال كثيرا من القضايا التي تحتاج الى مزيد من البحث والروية وانعام النظر ، ليستطيع المرء أن يقدمها صورة علمية عن البديعيات .

ولذلك أقدم هذا البحث الموجز ردا على المقال المذكور ، ليلقي ضوءا على نشأة هذا الفن ، اذ لا يمكن أن تطرح جميع قضايا البديعيات في مقال ، مهما طال واتسع .

فاذا كنت لا أختلف مع الباحث الكريم حول نشأة البلاغة العربية ، وفن البديع خاصة ـ لما في بطون الكتب من تأريخ لذلك ـ فانني على حرج من قبول السبب الذي وضعه لظهور البديعيات ، المتمثل بمحاولة رد الاعتبار

لفن البديع أمام قسيميه : البيان والمعاني . فهنالك أسباب رئيسية هامة وراء هذه النشأة ، وظروف ساعدت على ذلك ، لعلي أتطرق الى بعضها في أثناء حديثي .

أما نشأة البديعيات ، فقد كثرت حولها الآراء ، وتضاربت المواقف ، وتنازع مكان الريادة ثلاثة من الشعراء ، هم : علي بن عثمان بن علي ابن سليمان الاربلي (ت : ٦٧٠هـ) ، وعبد العزيز بن سرايا صفي الدين الحلي (ت : ٧٥٠هـ) ، ومحمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي الضرير (ت : ٧٨٠هـ) ، وكان لكل باحث حجته فيما ذهب اليه ، كما أن هذا الخلاف كان حديث عهد ، اذ يشعر الباحث أن القدماء كانوا شبه مجمعين على أن صفي الدين الحلي أول من نظم ما أسماه : « بديعية » ، يستشف ذلك الباحث من خلال البديعيات التي نظمت بعده ، والتي كان أغلبها معارضة لبديعيته ، كما يلمح ذلك من خلال أقوال المصنفين القريبي العهد من تلك الفترة (١) .

ثم جاء المحدثون ، واضطروا للوقوف على فن البديعيات ، من خلال مؤلفات عامة تشمل فن البديع مثلا ، فتوقفوا عند هذه البديعيات هنيهة ، ثم غادروها بزاد لا يوصف في أحسن حالاته بغير التعجل وسطحية البحث ، فكان التناقض والاختلاف ، واليك موجزا لتلك الآراء :

١ ـ فالدكتور زكي مبارك لا يرى في البديعيات الا أنها من آثار البردة ، تمثل أول مايكون عند ابن جابر الأندلسي ، الذي شغف بالبردة ، وشغل نفسه بمعارضتها ، « ولكن أي معارضة ؟! لقد ابتكر فنا جديدا هو البديعيات » (٢) .

٢ ـ أما الدكتور محمود الربداوي ، فقد رشح صفي الدين الحلي للأولية ، معترضا على د. مبارك بأنه « أميل الى اعتبار صفي الدين الحلي أسبق من ابن جابر في نظم أوائل البديعيات » (٣) . ويحتج لذلك ، ويعضده في موقفه هذا كثير من المحدثين .

٣ ـ ويقف بين هذا وذاك الدكتور أحمد ابراهيم موسى ، ليؤكد أن علي بن عثمان الاربلي هو السابق الى نظم البديعيات ، مستوحيا موقفه هذا من ابن معصوم المدني ، الذي أشار اليه في مقدمة شرحه لبديعته المعروف باسم « أنوار الربيع في أنواع البديع » ، ولم يكن الدكتور ابراهيم

أول من أشار الى هذا الرأي من المحدثين ، ولكنه كان أكثرهم تعصبا له ، ودفاعا عنه (٤) .

وفي الحالات كلها لم نسمع رأيا يجعل بردة البوصيري من البديعيات أولا ، وتطورا لقصيدة الاربلي ثانيا ، كما فعل الدكتور الأسعد في مقاله المشار اليه ، اذ لا يجوز بحال من الأحوال أن ننظم البردة في سلك البديعيات ، اللهم الا عندما نجرد البديعيات من عصبها الرئيسي ، وهو جعل كل بيت شاهدا على نوع من أنواع البديع ، ومن ثم ادخال جميع المدائح النبوية تحت اسم البديعيات ، وهذا أبعد مايمكن ، لأن هذا يعني عدم وجود فن جديد باسم البديعيات يسبق المدائح النبوية للبوصيري والاربلي معا ! .

ولعل نظرة بلاغية الى البردة ، تجعل الباحث على يقين من أنها ليست من البديعيات ، وان كان الصفي الحلي قد اهتدى بنهجها في نظم بديعيته . ويبدو أن الدكتور الأسعد كان يريد التحدث عن البوصيري وبردته بشكل رئيسي ، وعليه كنا نود لو أنه لم يضعها تحت اسم البديعيات .

وبالنظر الى تلك الآراء ، نجد أن الدكتور مبارك قد ضن علينا بحججه التي استند اليها في موقفه ، علما أنه قد تفرد في موقفه هذا – فيما أعلم – ولم يشر أحد اليه ، حتى ان الصلاح الصفدي المتوفى بعد الصفي الحلي في سنة (٧٦٤هـ) ، والذي كان صديقا وأستاذا لابن جابر ، لم يشر الى بديعية ابن جابر ، على الرغم من أنه أشار الى أن ابن جابر كان يسمعه شعره ، فقال في معرض حديثه عنه : « وينظم الشعر جيدا ، وأنشدني منه كثيرا ، وهو الآن حي يرزق بناحية البيرة ، كتب الي يستجيزني .. » (٥) ، فلو أن ابن جابر قد نظم بديعيته قبل هذا الوقت ، لكان طبيعيا أن يطلع الصفدي عليها قبل غيرها من شعره ، والا فهو قد نظمها بعد موت الصفدي ، أي بعد نظم الصفي الحلي لبديعيته .

وبما أن كلا من الصفي الحلي ، والاربلي كانا في فترة زمنية أسبق من ابن جابر بثلاثين سنة على الأقل ، فاننا نستبعد هذا الأخير من الأولية .

وموقفنا من قصيدة الاربلي لا يختلف عن موقفنا من بديعية ابن جابر ، اذ أن هذه القصيدة لا تملك من مقومات البديعية سوى أن أبياتها جاءت مشتملة على نوع بديعي في كل بيت ، ولعله قد صبغها بطابع العصر الذي عاش فيه ، من حيث الاكثار من الزخرف والمحسنات البديعية ،

فالقصيدة لم تكن في المديح النبوي ، كما أنها على غير البحر البسيط وروي الميم المكسورة ، وتقع كما رواها ابن شاكر في (٣٦) بيتا فحسب ، وكل هذه الأمور التي خلت منها قصيدة الاربلي ، تعد من مقومات البديعية الأساسية ، وعلى هذا ، فلا يجوز لنا أن نعد قصيدة الاربلي من البديعيات لكونها تضم أنواعا بديعية ضمن أبياتها فحسب ، فاذا اصطنعنا التساهل ، قلنا : قد تكون هذه القصيدة ارهاصة أولى لفن البديعيات ، لا بديعية مكتملة ، وهذا ماذهب اليه محمود رزق سليم ، عندما تحدث عن هذه القصيدة فقال : « غير أن الناظر في بديعيته ، التي في (٣٦) بيتا في الغزل ، يحكم أن هذا الفن الشعري الوليد كان في بدئه لايزال يحبو ، أو كان ذرة تتلمس لنفسها وجودا ، ولما يتفجر ما في بطنها من حياة » (٦) ، وان كان أيضا قد تجوز وأطلق لفظ « بديعية » على هذه القصيدة ·

فاذا كان ذلك كذلك ، لم يبق لدينا سوى صفي الدين الحلي ، مما يرشحه ليكون أول من نظم بديعية ، وأرسى قواعدها ، ووطد بنيانها ، وأخرجها ، للناس واضحة تسر الناظرين ، حتى انه ما حاول أحد ممن نظم بعده أن يحيد عنها الا وصم بالشذوذ والعصيان ·

ولست أدعي هذا ادعاء ، بل هناك ما يؤيد هذا ويثبته :

ـ فاذا كنا قد جعلنا قصيدة الاربلي بداية وارهاصة ـ في أحسن أحوالها ـ فلم يبق عندنا غير ابن جابر منافسا على الأسبقية ·

وان كان الفارق الزمني بين وفاة الشاعرين لا يمكن اعتماده دليلا كافيا ، ففي الغاية والأسباب التي حملت الصفي ما يسوغ ذلك ، ويحملنا على تقديمه على عصرية ابن جابر ، واستمع اليه وهو يقول في مقدمة شرحه لبديعيته ، بعد أن سرد تأريخ التأليف البديعي حتى وصل الى « تحرير » ابن أبي الاصبع : « فأنهيت الكتاب مطالعة ، وطالعت مما لم يقف عليه ، مما كان قبله ، وما ألف بعده ، ثلاثين كتابا ·· فجمعت ما وجدت في كتب العلماء ، وأضفت اليه أنواعا استخرجتها من أشعار القدماء ، وعزمت أن أؤلف كتابا محيطا بجلها ، اذ لا سبيل الى الاحاطة بكلها » (٧) ·

فهناك غاية رئيسية عند الصفي الحلي ، ورغبة واضحة في تاليف كتاب يشمل أنواع البديع ، ليكون ممن أدلوا بدلوهم في هذا الفن ـ ولعل الدافع الذي دفعه وأمثاله ممن ألف في البلاغة العربية عامة ، هو توضيح فكرة اعجاز القرآن الكريم ·

بيد أن الله تعالى لم يشأ لهذه الرغبة أن تتم ، ولذلك الكتاب المنشود أن يخرج كما أراد له صاحبه ، فأصيب الصفي الحلي بـ « علة طالت مدتها ، وامتدت شدتها » (٨) منعته من ذلك · ثم يقول : « واتفق لي أني رأيت في المنام رسالة من النبي عليه السلام ، تتقاضاني المدح ، وتدني البرء من الأسقام ، فعدلت عن الكتاب الى نظم قصيدة تجمع شتات البديع ، وتتطرز بمدح مجده الرفيع ، فنظمت مئة وخمسة وأربعين بيتا من بحر البسيط ، تشتمل على مئة وخمسين نوعا من محاسنه ·· وجعلت كل بيت منها شاهدا أو مثالا لذلك النوع » (٩) · فمن قول الصفي الحلي يمكنني أن أسجل ما يلي :

١ ــ وجود رغبة في تأليف كتاب يشمل أنواع البديع ، حالت دونها العلة ·

٢ ــ المنام ، ورسالة النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ التي تتقاضاه المديح ، بما يشبه ماجرى مع البوصيري ·

٣ ــ العدول عن فكرة تأليف كتاب الى نظم قصيدة تحمل مضمون الكتاب ، وتتطرز بمدح النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ·

فلو عدنا الى ابن جابر نسأله عن سبب نظم بديعيته ، لما أحار جوابا سوى الاعجاب ببردة البوصيري ، وما أرى مثل هذا الجواب يقف أمام هذه الأسباب والدوافع الموجودة عن الصفي الحلي ·

أضف الى ذلك أن نظرة موازنة بين القصائد الثلاث : البردة ، وبديعية الحلي ، وبديعية ابن جابر ، تجعلك تميل الى تقديم بديعية الصفي الحلي ، ذلك أنها أكثر قربا الى البردة من بديعية ابن جابر ·

وشيء آخر لعله يزيد الرأي بيانا ، هو أن الصفي الحلي أول من أطلق مصطلح « بديعية » على هذا النوع من القصائد ، وذلك عندما سمى بديعيته باسم « الكافية البديعية في المدائح النبوية » ·

وهذا الموقف ليس جديدا ، بل وافقت به كثيرا من الباحثين ، القدماء والمحدثين ، فابن حجر ، المتوفى سنة (٨٥٢هـ) يقول في ترجمة ابن جابر : « نظم الحلة السيرا في مدح خير الورى ، على قافية الميم ، بديعية على طريقة الصفي الحلي » (١٠) وغيره كثيرون (١١) ·

كما أن معظم أصحاب البديعيات أشاروا الى أنهم يعارضون الصفي الحلي ، بينما لم يشر واحد منهم الى معارضته لابن جابر ، ولعلهم ساروا وفق مقولة : « الفضل للمتقدم » .

واضافة الى هذا ، أذكر بما قلته من عدم اطلاع الصلاح الصفدي على هذه البديعية لابن جابر ، على الرغم من أنه كان يطلع على شعره كثيرا .

وكل هذا يوحي بأن الصفي الحلي أول من نظم « بديعية » تامة الأركان ، فان لم يكن أولهم ، فهو من أقدم من وقفت لهم على بديعية تامة . ومطلع بديعيته المسماة : « الكافية البديعية في المدائح النبوية » :

ان جئت سلعا فسل عن جيرة العلم
واقر السلام على عرب بذي سلم

ثم شرحها ، وسمى شرحه لها : « النتائج الالهية في شرح الكافية البديعية » .

ثم انطلق ركب البديعيات ، فكانت بديعية ابن جابر المسماة : « الحلة السيرا في مدح خير الورى » . ومطلعها :

بطيبة انزل ويمم سيد الأمم
وانشر له المدح وانثر أطيب الكلم

وكان لعلي بن الحسين عز الدين الموصلي المتوفى سنة (٧٨٩هـ) قفزة جديدة في نظم البديعيات ، وذلك عندما الزم نفسه في بديعيته المسماة : « التوصل بالبديع الى التوسل بالشفيع » أن يوري باسم النوع البديعي ضمن البيت . ومطلع بديعيته :

براعة تستهل الدمع في العلم
عبارة عن نداء المفرد العلم

وقد أخطأ الدكتور الأسعد عندما أشار الى أن العز الموصلي قد سمى بديعيته أيضا باسم : « الفتح الالي في مطارحة الحلي » . لأن هذا هو اسم بديعية الأديب المصري أحمد بن محمد بن علي بن العطار أبو العباس الدنيسري (١٢) ، المتوفى سنة (٧٩٤هـ) ، ولبديعيته هذه مخطوطة في برلين تحت رقم (٧٣٥٥) كما جاء في فهرس مخطوطات المكتبة .

ثم توارد الشعراء على البديعيات ، وأقبل الناس ، الخاصة والعامة ، عليها ، وأعجبوا بهذا الفن الشعري الجديد · ولم تقتصر على شعراء المسلمين ، بل انتقلت الى شعراء النصارى ، فنظموا غير بديعية في مدح عيسى ابن مريم – عليه السلام ولكن كان ذلك بعد أن مكثت في أحضان الشعراء المسلمين قرابة أربعة قرون من عمر الزمن ·

ولم تقتصر البديعيات أيضا على بقعة واحدة من بقاع الدولة الاسلامية ، بل انساحت في بقاع مختلفة ، وانتقلت من الحلة الى الشام الى الحجاز حيث كان لغير واحد من شعراء الحجاز بديعيات ، من مثل العلامة : علي بن محمد بن تاج الدين المكي الحنفي المفتي القلعي من ادباء اول النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري ، وبديعيته باسم : « مفتاح الفرج في مدح عالي الدرج » ، وله شرح عليها باسم : « تاج البديع والبلج على مفتاح الفرج في مدح عالي الدرج » ، ومطلع هذه البديعية :

براعة المطلع ازدانت من الحكم
واقبلت تستهل الجود من كرم

واستمر ركب البديعيات ، حتى عهد قريب ، فكان لطاهر الجزائري ، (ت : ١٣٣٨هـ) بديعية بعنوان : « بديع التلخيص ، وتلخيص البديع » مطلعها :

بديع حسن بدور نحو ذي سلم
قد راقني ذكره في مطلع الكلم

وما أدري ، فلعل الأيام تكشف عن بديعيات أقرب الينا عهدا من بديعية الصفي الحلي ·

ومما لا شك فيه أن هذا الضوء على نشأة البديعيات ، يخص أوليتها ، أما صلتها بالماضي ، وتطورها ، وقضايا أخرى فيها ، فله بحث آخر ، وحديث جديد ، تضيق عنه صفحات هذه المقالة ، وعسى أن تتسع له صفحات أخرى في قابل الأيام – ان شاء الله تعالى – ·

الحواشي

١ ـ انظر مثلا : العسقلاني : الدرر الكامنة : ٤٢٩/٣ ـ ٤٣٠ ، ترجمة ابن جابر .
٢ ـ د. زكي مبارك : المدائح النبوية في الأدب العربي : ١٦٩ .
٣ ـ د. محمود الربداوي : ابن حجة الحموي شاعرا وناقدا ، لم يطبع بعد .
٤ ـ د. أحمد ابراهيم موسى : الصبغ البديعي : ٣٧٨ ، وانظر مقدمة : « انوار الربيع » ، لابن معصوم .
٥ ـ الصفدي : نكت الهميان في نكت العميان ، (ط. مصر ١٩١١م) : ٢٤٥ .
٦ ـ محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك : ١٦١/٦ .
٧ ـ الصفي الحلي : النتائج الالهية : المقدمة .
٨ ـ المصدر السابق .
٩ ـ المصدر السابق .
١٠ـ العسقلاني : الدرر الكامنة : ٤٢٩/٣ ـ ٤٣٠ .
١١ـ انظر مثلا : احمد أمين : ظهر الاسلام : ٢٠٢/٤ . (ط. ثانية) ، و « المفصل في تاريخ الأدب العربي » لمجموعة من المؤلفين : ٢٠٠/٢ ـ ٢٠١ ، و « الوسـيط في الأدب العربي » : ٣١٢ ، ٣١٣ ، (ط. ١٩٢٨) ، لأحمد الاسكندري ، ومصطفى عناني . ونعيم الحمصي ، « الرائد في الأدب العربي » : ٥٧١ .
١٢ـ انظر : البغدادي : هدية العارفين : ١١٦/١ ، وعباس العزاوي ، « تاريخ الأدب العربي في العراق » ٣٢٨/١ .